

## الإسلام دين الخدمة الاجتماعية والتضامن الإنساني

تستمد الخدمة الاجتماعية أصولها من الروح الانسانية التي تتطوع لخدمة الضعفاء  
والمحتاجين الى العناية على اختلاف ضروبها : مادية ومعنوية وطينية ... الخ .

والدين من أشد المؤثرات في هذا الروح الانسانية العطوف ، وقد كان التأثير الديني  
عاملا من العوامل القوية في التهذيب الوجداني والتعاطف الانساني ، في جميع العصور  
وجميع البيئات .

وإذا نظرنا الى الاسلام من هذه الناحية وجدناه دين الخدمة الاجتماعية ودين التضامن  
الانساني ، سواء في ذلك نصوصه وأحكامه أو تصرفات نبيه وخلفائه .

ويصعب علينا أن نأتي هنا بجميع تلك النصوص وجميع هذه التصرفات ، فنكتفي بأن  
نضرب لها أمثلة تبين كم كان لهذا الدين من فضل في البر الاجتماعي ، وكم يصلح أساسا  
لمشروعات الخدمة العامة في جميع العصور . ثم لينظر المساءون الآن كم هم بعيدون عن روح  
دينهم حين يهملون الجانب الانساني والاجتماعي فيه .

\*\*\*

علم الاسلام أن أساس الخدمة الاجتماعية والبر الانساني هو الروح الذي يدفع الانسان  
الى البر لا المظاهر التي يتراءى بها وقد يكون له فيها مآرب أخرى ، بخلاف في القرآن الكريم :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ  
ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّالِّينَ فِي رِجَابِ  
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ) .

فالبر إيمان في أول الأمر واطمئنان الى عقيدة ، ثم التصديق بالمال على حبه ،  
ثم إخراج هذا المال فريضة محتومة في الزكاة ، بناء على هذه العقيدة وهذا الايمان الذي يغلب  
على حب المال ، ويدفع صاحبه الى الصدقة والى الزكاة .

والبرروح عطوف وشعور لطيف ورحمة وحنان قبل أن يكون مالا يقصد بإعطائه  
الرياء أو يتبعه المن على الفقراء : (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا  
أَذَى) ... ( لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ) .

والرحمة أساس الايمان ، أما القسوة ومجانبة البرهقى مصاحبة للكفر : ( اَرَأَيْتَ  
الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ) .  
والأمانة في القرآن كثيرة على أن البرشعور نفسى قبل أن يكون مظهرا ماديا وأن هذا  
الشعور وولد الإيمان وقرينه في نفوس المؤمنين .

ولكن الاسلام دين عملى فهو لا يكتفى بأن يقرر هذا المبدأ ويرتبه من غير تشريع ،  
فكثير من الناس لا يبلغ شعورهم من الرقى درجة يصنعون معها الخير بلا حافز ولا قانون ،  
وأوساط الناس من هذه الطائفة ، فليكن القانون دقيقا معهم وحازما ، أما الذين تندفع  
نفوسهم إلى الخير بوازع من الضمير : فسيؤدون هذا الخير قبل أن يطالبهم به القانون .

ولما كان المال عصب الحياة ووسيلة العمل ، فقد شرع الاسلام الزكاة ، وجعلها  
فرضا على القادرين ، ليوفر للبرمووردا ثابتا ، وليجعل الدولة بهذا المورد مسؤولة عن المحتاجين للـ  
الاجتماعى وقادرة على حمل هذه المسؤولية والنهوض بها : ( وَأَقِيمُوا الصَّالَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ )  
( إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ  
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ) فهذه موارد الزكاة ومصارفها  
مبينة في نصوص القانون ، وعلى الدولة أن تجبى الزكاة وعليها أن تصرفها في وجوهها . وذلك  
هو البرالاجتماعى القانونى فى أرقى صورته فى العصر الحديث .

ثم لا يكتفى الإسلام بالزكاة المفروضة ، فهناك صدقات يبحث عليها ويزينها ويثني على  
من يجودون بها : ( وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ  
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ  
بِهِمْ حَخْصَاةٌ وَمَنْ يَوْقِ شَخْخَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ) .

وفي موضع آخر يتحدث عن الأبرار عباد الله فيقول : ( وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ) .

وفي هاتين الآيتين وسواهما تفصيل لوجه البر عن طريق الصدقات . للمهاجرين والمساكين واليتامى والأسرى ... وسواهم ممن يحتاجون للرعاية والبر بالعطف وبالطعام وبالمال وبالإيواء ، مما نسمع به الآن في بعض الأمم التي دعتها كوارث الحرب فقفا أمامه مبهوتين مهجرين ؛ وهو وأمثاله عندنا من صميم الدين .

ثم يتهمز الإسلام كل فرصة ليدفع المؤمنين إلى البر والجلود والتبرع ، فكثير من الخطايا والأخطاء يجعل التكفير عنها بالبر ، وكثير من التقصير في العبادات يجعل التعويض منه بالبر .

فمن حلف يميناً لم يوف بها وحنث فيها ( فَكَفَّرَتْهُ ) إطعام عشرة مسكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ) وكلاهما بر اجتماعي وإنساني .

( وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مَسْلُومَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ )

ومن أنظر في رمضان تامدا من غير مبر شرعي فن بين الكفارات التي تطهره : (تحرير رقبة أو إطعام ستين مسكينا) .

ومن ضعف عن الصيام للشيخوخة أو لمرض لا يجى شفاؤه فعليه أن يطعم مسكينا من المساكين كفارة عن كل يوم من أيام رمضان ... وهكذا .

وإذا تجاوزنا النصوص الواردة في القرآن الكريم والواردة في الأحاديث النبوية وهي كثيرة لم نذكرها هنا ... إذا تجاوزنا النصوص إلى التصرفات العملية لنبى المسلمين وخلفائه وبعض ملوك الإسلام في شتى عصوره نجدها في الحياة العملية مصداقا للنصوص المكتوبة .

فحمد عليه الصلاة والسلام يتصدق حتى لا يبقى لنفسه شيئا ، وكان يواسى الضعفاء بنفسه ويقول "أبغونى الضعفاء فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم" وشملت رحمته الإنسان والحيوان فقال من حديث : "فى كل ذات كبد رطبة أجر" .

وعمر بن الخطاب هو صاحب القصة المعروفة مع الصبية الجياع وهي المثل الكامل للخدمة الاجتماعية يؤديها الحاكم لرعاياه ، والقوى للضعيف ، والانسان للانسان . ولكن أدل منها على روح البرقصة عمر مع اليهودي : "ذلك أنه رأى شيخا ضريرا يسأل على باب . فلما علم أنه يهودي قال له : ما أهلك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباه ، فوالله ما أنصفناه إنا أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكآب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ."

فهذا مثل للبر الإنساني المجرد عن العاطفة الدينية ، ومثل في الوقت ذاته للبر المنظم الذي توضع له القواعد ليكون عرفا وقانونا شاملا للحالات المختلفة في كل حين .

"وأعطى الوليد بن عبد الملك المجذومين وقال : لا تسألوا الناس ... وجعل لكل مقعد خادما ، ولكل ضريرا قائدا ، وكثرت من بعده المستشفيات والملاجئ والتكايا في أرجاء البلاد الإسلامية لإيواء المرضى والفقراء والسائحين والمحتاجين ، فما يمر سائح ببلد إلا وجد مأوى وطعاما في هذه الدور أو في بيوت الناس ."

فهذا الدين الذي تحوى نصوصه وشرائعه تلك المبادئ والذي يتصرف المؤمنون به هذا التصرف هو دين الخدمة الاجتماعية ، ودين البر الإنساني ، فإذا تخلف قومه في عصر من العصور عن الوفاء بنفسه وروحه ، فذلك تقصيرهم وحدهم ، وعلى المصلح الاجتماعي أن يذكرهم بدينهم ، ويتخذ منه أساسا للخدمة الاجتماعية بينهم ، وهو أساس صالح ممكن .

وذلك واجب رجال الوعظ الديني الذين لهم بحكم مناصبهم وحكم عملهم اتصال عملي بالناس فقيرهم وغنيهم على السواء وهم بحكم ثقافتهم أجدر الناس بأن يتولوا الإرشاد الديني على أسس اجتماعية . وأن يجعلوا مواءماتهم تنصب على هذا الجانب الحي الواقعي في حياة الشعب ؛ وإن هذا الإرشاد لينتج أفضل النتائج حين يطبق الدين فيه تطبيقا واقعيا على المشاكل الاجتماعية الحاضرة ، لا حين يسلك طريق البحوث الفقهية أو التشريعات المجردة كما نلاحظ في كثير من الأحاديث الدينية في الإذاعة والخطب المنبرية في المساجد .